قصة حب

قصة بقلم روبير مارغريت
ترجمة عايده مطرجي ادريس

في الحقيقة ليست هي حتى قصة . انها شيء لا اسم له ولا يكاد يُستطاع سرده. فقصة الحب تفترض احداثاً تقليدية كأن تنتهي مثلا بزواج او موت اوفراق يثير ضجة . اما القصة التي اريد ان ارويها الآن، فلا حوادث فيها، ولا نهاية لها . واما بدايتها فعادية جداً .

كان ذلك منذ ثماني سنوات في محطة الأذاعة بمركز « اوتوي » وكنت وقتئذ انتسب الى فرقة « دلماس » الذي كان راغباً في تقديم مسرحية إبطالها عديدون ، فاتفق مع بعض الممثلين ، وكانت بينهم « ماريا » التي اسند اليها الدور الرئيسي .

واذ دخلت الى الأستديو لتقوم بالتجربة الأولى استولى علي جمال هذه المرأة الباهر واستغرق كياني كله. فلم ار غيرها . كانت هذه هي المرة الأولى التي اقترب فيها من « ماريا العظيمة» كما كانوا يسمونها في اوساطنا. ولقد كان قربها الدافيء وسعة عينيها القاتمة واناقتها البالغة توفر لي الأحساس بالضيق الشهواني نفسه الذي يعترينا عندما ندخل الى حمام تناهت حرارته .

لكنني ما لبثت ان اعتدت شيئاً فشيئاً هذه الحرارة بينما كان دلماس يشرح لنا الأدوار . فاستعدت اطمئناني و استطعت ان اجيل طرفي حول دائرتنا . وفجأة تعلقت عيناي بوجه في فتوة ساحرة يعلوه شعر رائع .

و قلت في نفسي ما عسى هذه الفتاة الصغيرة تفعل هنا ؟

ولكنها ما لبثت ان نهضت واقتربت من المذياع فلاحظت اذ ذاك انهـا امرأة على جانب كبير من الصبى . انها ، ولا ريب ، لا تتجاوز الثامنة او التاسعة عشرة من عمرها . كانت فارعة القامة رائعة التكوين ممشوقة على امتلاء في الجسم . وكانت تقرأ ، ممسكة بيد ورقتها ، مرتبة بالأخرى على غير ما تعمد خصلة من شعرها على جبينها النقي المشرق . ثم سكتت مترقبة الجواب

وصاح بي دلماس : وماذا تنتظر يا بيار ؟

و تقدمت بخطى مترددة ، فنظرت الي وهي تبتسم وقد أمتعها شرودي . كانت ابتسامتها كابتسامة تلميذة يسليها اتفه شيء ، ولكن اي اشراق كانت تضفي على عينيها واي انعكاس ! كانت اسنانها من ظل شفتيها تلتمع كينبوع بين الورود . كل ما فيها كان كمالا وصفاء : كالماء والسماء وانبثاق النبتة . وكانت جاذبيتها تفضح بنضارة عجيبة . ولقد وجدت اسمها ساحراً : كانوا يدعونها « ليز »

وحدثتها اذ فرغنا من العمل فاخبرتني انها آتية من معهد « بونالد » حيث كان دلماس يعمل فعرض عليها هذا الدور . وفي تلك اللحظة ناداني دلماس . لقد استدعتني ماريا . ولقد فاجأتني « ماريا »أتكلم من غير تكليف مع هذه المجهولة فاظهرت لي لطفاً بالغاً . وحين تمكنت من مفارقتها كانت « ليز » قد اختفت ويا للأسف .

في تلك الحقبة كنت اعيش مع « جردا » التي كانت رسامة وكاد فنها او بالأحرى علاقتها بصاحب رواق في « فوبور سان انوره » ان يجعل منها فنانة ذائعة الصيت . ذلك المساء ألفتني شارداً بارداً فاتهمتني بانني اخدعها .

فاجبتها قلائلا وأنا اهز كتفي « انك مجنونة . كل ما في الأمر اني مريض »

وسرعان ما تبينت ان هذا صحيح . فانا اشعر بضيق كالذي يسبق الضنك ولماذا ؟

وما كدت آوي الى فراشي حتى وجدت تحت جفني صورة ليز مرسومة بالوانها النضرة ورشاقتها وامتلائها الشبيه بامتلاء النبتة الجميلة. وتمثلت ابتسامتها ولمعان اسنانها العذب وبريق عينيها فشعرت بقلبي ثقيلا .

ماذا ؟ اتراني قد عشقت هذه الطفلة ؟ في حين ان جمال ماريا قد بهرني من غير ان يتملكني ، وكنت احب جردا حباً حقيقياً . اني الآن ، وفي دفء ضجعتنا احسها ملتصقة الي وكنت بحاجة الى انفاسها ، « جردا » الخفية المنزلية التي كانت بشرتها تلائم بشرتي ، وكان جسدها يستجيب لجسدي . لقد استنفذت جميع رغائبي . او هذا على الأقل ما اعتقده .

ان في نفوسنا دائماً صبوة غير محققة . ان في اعمق اعماقنا نهماً لا يرويه شيء . كانت « جردا » جميلة ، وكانت طيبة ، وكانت طوال ثلاثة اعوام تشبع كل رغباتي وكل حناني . ولكنني مع ذلك كنت احلم بليز . وكنت اعلم اية عذوبة كانت صورتها تريق في نفسي بحزن ولذة .

و في اصباح التالي ، عندما استيقظت « جردا » ظللت مطبق الجفنين . وقد كان من عادتها ان تغدو هنا وهناك عارية لا في غرفتنا وحسب ولكن في البيت كله لتقوم باعمالها بطريقة لا تخلو من غموض . وكانت قد عرضت جسمها للتصوير مدة طويلة من الزمن كسباً لحياتها ورغبة في شراء لوازمها . ولقد اورثها ذلك طابعاً يتنافى والحشمة . فكانت تذرع الغرفة عارية من كل شيء .

وكان يحدث احياناً ان ترتدي قميصاً قصيراً ولكنها سرعان ما كانت تنزعه لتنصب نفسها موديلا تنقل عنه . كانت تقف امام مرسمها فتغمز بعينها ، وتتفحص صورتها المنعكسة على مرآة متحركة. ولقد كان من عادتي ان اجد متعة في ان اراها كذلك بساقيها الطويلتين وخصرها المكين وعنقها المتطاول التي كان حدها ينثر لونه الرخي من فوق الوان الرقعة الصارخة .

ولكنني في هذا الصباح كنت اتحاشى ذلك المنظر ، كنت اتهرب من الرغبة وكنت بحاجة الى الراحة ، وكان علي ان استنفد كل موهبتي لأحدث دلماس عن ليز من غير ما اهتمام . فكنت اجهد في سؤاله دون ان اشعره باهتمامي وكان يجيب بابهام وكدت لا افهم شيئاً .

وفي اليوم التالي ، حين قصدت الاستوديو رأيت ليز تهبط الدرج . وامام المصراع كان يقف شاب ليس دونها اناقة . وقبل ان تدخل التفتت الى الوراء وارسلت اليه اشارات ودية ثم رأتني فاقبلت علي بلطف . وسلمت عليهـا .. ولم اعرف ماذا اضيف .

ما اوسعها مسافة تلك التي تفصل بين الكائنات ، انها مسافة يقتضي تقليصها وقتاً طويلا. ان احدنا لا يستطيع من هذا البعد الشاسع ان يهتف لأمرأة ، لصبية. « انت التي تتقمصين اعمق آمالي . » بل كان علي ان احدثها بخفة عن اشياء تافهة ، عن رفاقنا ، في المسرحية . ولكن كان يعسر علي ايجاد العبارات ، وكنت مضطراً الى ان اتكلم بلغة غريبة . فلغتي الحقيقية تلك اللغة التي كان لابد لليز من ان تتكلمها هي ايضاً كانت تصدي في اعماقي . لماذا تراني كنت لا ادعها تتخطى شفتي ؟ لأن ليز ما كانت تستطيع ان تفهمها ، وكنت على يقين منذلك .

كانت في الحقيقة غريبة عني ، انها تخص حياتها ، هذه التي كانت فيها تلك السيارة وهذا الفتى الأنيق وسواه من المعجبين الكثر والمعتادين . اما انا فكنت ساكن جزيرة اخرى، جزيرة سعيدة ، يستمتع بكل ما فيها ، جزيرة معطرة بجسد « جردا » . ان كلا منا اسير سعادته اليومية ، وثرائها . وليس باستطاعتنا في مثل هذا الوقت القصير ان نلتقي في مكان آخر .

ولم يكن ثمة بعد الا هذه التجربة ، التي سنقوم بها هذا المساء . ثم ينتهي كل شيء فلا ارى ليز بعد اليوم .

كنت جالساً في الأستديو وانا اتأملها. كانت تقرأ أمام المذياع المشهد الكبير مع ماريا ودلماس . كم كنت احبها يا آلهي ! وبأية عبادة عميقة ! اي سحر لا ينضب ، واي هوى جارف ، واي عرفان راعش كهبة بالغة الجمال عرفت في هذه اللحظات. إن الرجل الذي يغرق، يعيش لدقائق قبل ان يجرفه التيار ، فيلم حياته السريع . ولكنه لن يعيش ماضيه بهذه القوة التي عشت فيها مستقبلي الذي لم ينجز ، مع انه كان مشبعاً بحقيقة تفوق الحقيقة الانسانية .

وأتى دوري في التمثيل وكنت قريباً من ليز فاستنشاني عطرها ودفئها ، وتغلغل في اشعاع جسدها . لقد كنت متأكداً من انني سأفقدها . فكان ذلك يمزقني . وكنت ثملا بهذا العذاب . وكان في هذا الألم نشوة لم اجد مثلها بين ذراعي جردا ولا اية امرأة اخرى . اترى ليز قد فهمت كل ذلك ! لا ريب في انها قد ادركت اني معجب بها ولكنها لم تكن تعرف انني احببتها ولم تكن تعرف مبلغ حبي .

وفي المساء حين اطفىء المصباح الأحمر خلف شباك العامل اثر آخر جواب من آخر فصل، التفتت ليز الي. لقد كانت نظرتها وابتسامتها الكئيبة تتجاوب واحساساتي تجاوباً عميقاً جداً حتى حسبتها متبادلة..

وظللت لحظة اخرى مسحوراً بهذا كله ، ثم فنيت في عبادتي وقلت بعد ذلك : وداعاً يا ليز .

فاجابت : بل الى اللقاء .

وكان في انتظارها رجل اربعيني يشبه اولئك الذين تنشر صورهم مجلات الموض للرجال وفي يده زهور . اما انا فكنت على موعد مع جردا .

وبعد ثلاثة اشهر ضاعت ذكرى جردا في نفسي بين ذكريات سواها . فحلت ماريا محلها في حياتي اليومية . يبدو انني قد اثرت على هذه الفنانة تأثيراً عميقاً . ففي الأسابيع التي تلت عملنا في الراديو كانت تبحث عني . فداخلت الريبة في ذلك جردا . كنت احبها ودودة لا حسودة . ولكنها اتعبتني فتركتها . اما وقد غدوت طليقاً ، اترانى ارفضها ؟ انها غنيمة مغرية . كانت تملك ذلك الجمال الذي يتوج المرأة الناضجة اذ تبلغ هذه اللحظة الدقيقة التي تفصل قمتها عن سفحها . ولقد وعيت هذه اللحظات . فقطفتها معترفاً بجميل هذه الصدفة .

ولكنني ما نسيت ليز وما كان ذلك في طوقي . لقد كانت تسكن كياني . وكنت اتحسسها في كل لحظة . كنت ارافقها في الشوارع وكانت تتبعني الى المسرح وكنت احملها في نومي. ولقد حلمت بها يوماً فميزتها بدقة عجيبة ، واقفة على رصيف قرب عامود محطة الأوتوبيس . وكانت تبتسم لي . وفي اليوم التالي ، كنت انتظر الأوتوبيس ذا الرقم ٩٢ : فخيل لي ان حلمي الذي كان لا يزال مستولياً علي يستمر حين رأيت ليز تخرج من وراء صف السيارات الواقفة المنتظرة وتتوجه نحوي .

ولم تكن قد رأتني من قبل . ولكنها عرفتني على الفور ، فابتسمت لي كما ابتسمت من قبل في الحلم وفي الأستديو . فبقينا وجهاً لوجه نتبادل النظرات ؛ ولم يكن لدينا ما نقوله مرة اخرى ، او بالأحرى إنما احس به كان من العمق والأهمية بحيث خانتني الألفاظ وحتى الحركات في التعبير عنه . ولا ريب إن هذا هو تعليل هذه القصة الغريبة وتبريرها .

لم تكن الكلمات ولا القبلات ولا الضمات التي توهمنا بامتلاك المحبوب والتي اوهمتني من قبل بامتلاك جردا وماريا ، لم تكن كلها كافية لتشبع رغبات حبي الكبير . لم اكن اعرف ذلك من قبل . ولكني كنت استشعره : كان بيني وبين ليز شيء محتوم ، شيء لا مرد له . لا يخضع للحدود العادية ولا للابنسات الحياة والواقع .

وظللنا ، الواحد قرب الآخر على حافة الرصيف زائغين نتبادل بمشقة حواراً تقليدياً لم يستطع اي جواب فيه ان يتعدى الحاجز .

– ماذا حل بك . ؟

– بلغني انك تغني في ..

– اما هيأت شيئاً للراديو ؟

كانت تشعر بحرارتي وباضطرابي. ولا ريب في انها كانت تشاركني فيها الى حد ما . لم تكن تدرك تحفظي ولا حزني بصورة خاصة . ضلت ، فاخذت تحاول بعينيها سبر اغواري .

لكم كانت مثيرة ، نظراتها الدهشة الحائرة ، ثم الخجلة والمحتمية فجأة وراء الأهداب المخملية ! اية قوة كانت تمنعني من الاستجابة ، لنبضات حواسي. لقد كان بامكاني ان اقول لها : « احبك ، انني اسير حبك » ولم يكن هذا البوح ليثيرها بل كانت تبعتني حتماً من غير تردد ، الى ساحات « اوتر » القريبة وفنادقها الخفية .

ما كنت اتمنى ذلك . وان ما كنت اريد يختلف عن ذلك تماماً . فالذي تمنيته كان من نوع آخر .

ان ما كنت اريده ، آه ، لا اعرف ان اصفه . انها اشياء غير معقولة :

– تمنيت لو عرفتها منذ زمن طويل ، لو شببنا معاً ، لو كنت روحها ، جسدها ، على ان ابقى انا نفسي لاسكر بها. كنت اتمنى اشياء لا يستطاع التعبير عنها ، اشياء لا يفكر حتى بها .

ولم افكر حتى بان اطلب منها لقاء . لقد كان يسيراً علينا ان نلتقي في مقهى او في صالون شاي . ولكن ما جدوى ذلك ؟

ومضت .. ولعلها كانت خائبة . ويبدو ان كآبتي قد تسربت اليها فتبعتها بنظري حتى بلغت مدخل المترو. وقبل ان تدنو منه، التفتت الى الوراء فبدا وجهها رزيناً ، منحنياً كأنه مثقل ثم اشارت بيدها اشارة ربما كانت تنم بالوداع .

ولم استقل الأوتوبيس ٩٢ . وانما انحدرت نحو السين بعد ان قطعت الشانزليزيه وامضيت بقية النهار هناك على الرصيف عند ضفة النهر الهادئ . تلك الضفة التي تنثال عندها الأحلام وتخفف الروح من اثقالها . حتى الهوا الذي نتنفسه كان يأتي من عالم آخر . إن باريس بعيدة . هناك ، فوق ، وراء هذه الجدران التي تمتص صخبها . ليس هنا الا مياه السين الهادئة التي تهدهد وتنيم . والا السماء الوسيعة التي تبدو من خلال الأوراق التي تغطي المدينة فتشيع في النفس الرضى والأطمئنان. لقد وصلت الى هذا المكان والليل هابط ، فجلست هنا ، سابحاً في هذه العشية الرمادية الزرقاء الباردة متعلقاً بكآبتي .

ثم رجعت . وعندما عدت الى المسرح كانت ماريا بانتظاري . فقالت لي ، وقد بدا على وجهها الأضطراب : « واخيراً اين قدمت ؟ وما فعلت » . ثم ما لبثت ان هدأ روعها إذ رأت وجهي وقد ارتسمت عليه علامات التعب . وقالت : « ماذا جرى يا بيار : هل انت مريض ؟ »

لقد كان حبها ممزوجاً بشيء من عطف الأم وقلقها. كانت تحبني بالقدر

الكافي الذي يدعوني الى ان ابوح لها بكل شيء فقلت : « اطمئني ، ليس في الأمر شيء خطير . لقد مشيت كثيراً على الشاطىء وكانت تتملكني افكار سوداء. » – افكار سوداء ، ولماذا ، اولست سعيداً ، اما تحبني ؟ (– بلى ، وانت تعرفين ذلك . فانا معجب بك ، وانا احبك.(فاخذت تداعب شعري . وحال الماكياج بينها وبين تقبيلي فقالت : « لماذا هذه الأفكار السوداء يا عزيزي ؟ كنت سعيداً قبل خروجك من هنا وكان كل شيء على ما يرام . »

فقلت : لقد التقيت بشخص بعث في نفسي ذكريات قديمة ، قبلك

قالت : شخص ؟ من هو ؟ ابأمكاني ان اسألك من يكون ؟

فأجبت : طبعاً انها ليز . انت تعرفينها ، لقد كانت تعمل معنا في الأستديو

قالت : اهذا الطير الصغير المتنقل ؟ لقد كنت انت اذاً من عشاقها ؟.

قلت : لا . ولكنني كنت مهووساً بحبها .

كان هذا الأعتراف بالحب في هذه اللحظة يملأ نفسي بغبطة نقية عميقة ، وهادئة وكانت ماريا تتأملني بشبه ذعر ثم صرخت من جديد :

« مجنون انت ! اتحب هذه الصغيرة . انها جميلة ، ما في ذلك شك ، ولكن كان بامكانك ان تمتلكها بعلبة ملبس او بأي شيء آخر . انها تنام مع الجميع . تدورها في الراديو كان ثمناً لأطاعة دلماس هذا المخيف والله يعلم كم كان هذا الشيخ المتهتك متطلباً ! أأنت ذلك المرهف ، قد عشقت هذه ؟ انك لتحيرني !

على ان هذه الأيضاحات ما كانت لتفاجئني . اما رأيت بنفسي ذلك الشاب الجميل ، وذاك الأربعيني المحمل بالأزهار ؟ اما شككت بان هنالك كثيراً من الرجال الذين يحومون حولها وبان هنالك كثيراً من الرغائب حولها ؟ واخيراً اما شعرت بنفسي قرب عامود الأوتوبيس ٩٤ ان جسدها ما ايسر ان يستجيب لأشارتي ؟

ولكن ماذا يهمني من هذا كله ؟ ماذا يهمني العالم الذي يعيش فيه قسم اجهله من ليز ؟ ان ما احببته في ليز لا يمكن لأحد ، حتى ان يدركه . ولم يستطع احد ان يدنسه .

لقد كان سروري وعذابي الغريب في ان توجد بكل بساطة ، في ان تتخذ شكلها في ان يكون لها فم الطفل هذا ، وهذا الجبين وهاتان العينان وهذه الابتسامة . كل افعالها ما كانت لتبعدني . ولا شيء ، حتى هي ، كل هذه لم تكن باستطاعتها ان تمنحني نفسها او ان تسترجعها .

و ... مرت ثماني سنوات . لم ار في اثنائها ليز . ولكني ما زلت احبها دون ان اتمنى لقياها . فانا اجهل مصيرها ، ولكن شعوري لن يتبدل حتى ولو رأيتها ذليلة ساقطة .

لا ، ليس بامكان اي مخلوق ، اية قوة ، حتى الزمن ، انقاص ما منحتني اياه ليز الصغيرة . انه ما يزال كاملا لم يمس . هذا الكنز من النضارة ، من البهادة ، من الحنان. الذي لا يتحقق كامن في نفسي كينبوع خفي . فاذا ما فرغت الى نفسي عدت اتذوق في اعماقي هذه السعادة الكئيبة المثلى في نظري . هذه السعادة التي تجود بها الأحلام ولا تصل اليها الأيدي لحسن الحظ فلا تفسدها .

لقد كان سحر حبي الأكبر وميزته هو انه لم يوجد قط الا في قلبي

ترجمة : عائدة مطرجي ادريس

دار الآداب تقدّم

فؤاد الشايب

مؤلف « تاريخ جرح »

يطلع على القراء العرب

بعد صمت عشرة أعوام

بقصة كل موظف عربي

● مأساة نفس في صراعها مع عبودية الأقدار

● حكاية جيل يبحث عن مثله

● حياة تروى وقائعها يوماً بعد يوم في أوراق خلفها وراءه موظف

يصدر قريباً